

شعرية التفاصيل بين الفن التشكيلي و السرد

قراءة في رواية "حائط المبكى" لروائي "عز الدين جلاوي" أنموذجا

أ. لوت زينب د. عبد القادر مزاري

جامعة مستغانم

ملخص المقال باللغة العربية :

أن لغة الخطاب السردية، وتشكل محتوياته من خلال الأحداث و تشكيلها في وحدات خطابية تؤسس الجانب الفني، والوعي الوجودي القائم بين الحس الذي يرتقي له السارد فنيا و الرؤية العميقة للمؤثرات الجمالية في بلاغة اللغة، و التراكيب المعززة لسير المعاني مع الألفاظ وتشكيل تفاصيل الصورة الفنية في السرد.

ملخص المقال باللغة الفرنسية :

le langage du discours narratif et former son contenu à travers les événements et les unités formées établissent rhétoriquement le plan technique, et la conscience de l'existentiel entre le sens qui se lèvent pour lui techniquement le narrateur et la vision profonde des influences esthétiques dans l'éloquence du langage, et les compositions améliorées fonctionnement des significations des mots et la formation des détails de l'image technique dans le récit.

الكلمات المفتاحية: الشعرية؛ التفاصيل؛ السرد؛ عز الدين جلاوي؛ الفن التشكيلي؛ الخطاب؛ الرواية؛ التواصل؛ الجسد، الحس.

المقال :

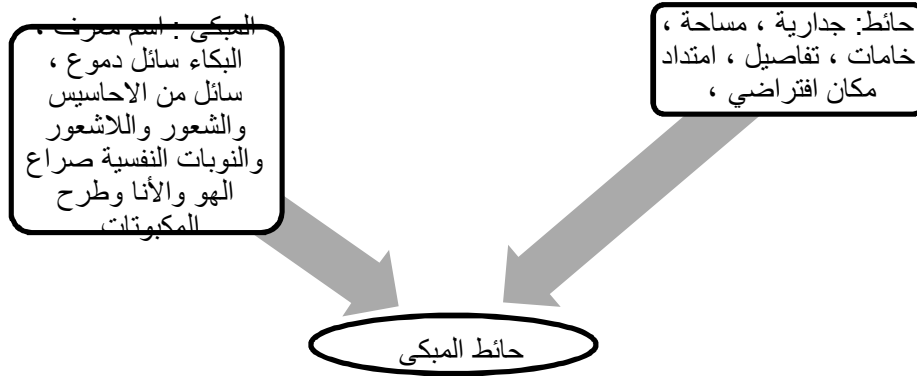
تتخمر الصورة في جسد النص، وتنضب لترسم الخامات الخطابية في لغة التخاطب ومسالك التواصل بين تصوير العالم الحسي في رواية "حائط المبكى" للمؤلفها "د. عز الدين جلاوي"، تبهر الأضواء حين تنصهر في أزمنة من الماضي والحاضر والقريب من الحاضر أيضا كأنها مسافة واحدة تغمر القارئ بشحنة من القصدية التي تختبئ خلف نبوءات تمتد في رحلة بحث عن المخبوء، ويومض كل مرة المحقق في مسيرة فنان يهوى الرسم فيتشبع من ثقافات الرسامين ومن بنية من التوايف العالقة في تأصيل جذور الجمالية، وتصوير عمق نفسي ودوافع تكوين لشخصية محورية الرواية المتجسدة في الرسام كنموذج لهالة من التصورات، تستأثر مقارنة لفكر ميشال فوكو Michel Foucault المتحدث في فلسفته عن الكائن من داخل التمثيل: "على الرغم من الجانب الداخلي الذي حكم الكائن ومنه قلبيا الإنسان إلا أن تشكله كان من الخارج تضمنه الداخلي كان - في اللامفكرة فيه (اللاوعي) كان في صمت اللغة (..) فكان من الضروري تحرير الكلمات من المضامين الصامتة التي ترتحنها" (1) مثبتا بقناعات تتجه نحو التحولات الخطابية في زمن التخاطب التخيلي في الحوارية الذاتية بين الرؤية البصرية للفعل الماضي، والحاضر المحايد الذي تتصارع فيه النوايا الفكرية وتتمازج فيه المشاهد التصويرية "فالصورة تتولد حدسيا مع الشعور أو الفكرة" (2)، يعيدنا دائما إلى الفكرة الأولى وهي البحث عن شيء مفقود وحقيقة غائبة في ذات البطل كأنه يعيد اكتشاف معالمة عبر جسر اللغة وتخطي العادي للانزياح الجمالي والقصد التحميلي لكنها تلبس كل مرة نوتة الكشف عن أسرار يحولها كل مرة لأعمق وأرفع من ما هو جائز وما يجوز تفنيده في لحظات .

يصور الروائي "عز الدين جلاوي" حالة وجود، وينتقل النص إلى غاية وجودية انتقالاتا تواجديا بين التشكيل وإحصاء منافذ الرؤية، في رواية "حائط المبكى" تنتشر التحولات الخطابية ارتجالا بالأزمنة والأمكنة، وتركيبا لشخصيات تتعدد ولكنها في تجاوز الصورة مرئية تثير الحدس المرآوي وتمنح تفاصيل تعاقبية تمنح نوتة ترسم صورا إيقاعية تحرك جلبة الحس، وإثارة الحدس في المتغير بين ذاكرة الإنسانية والخيال الناطق في إنسانيته، والتخيل لا يعدو ممسكا للأشياء بقدر ما يمثل نفاذه

وتنفيذه لسوسولوجيا إبداعية تحتزن صورة من التفشي في ظواهر تتسع للحلم، وتضخ جمالية، "فالنص في حيث ما يمثل في مألوف العادة، عجينة كريمة طبيعة، سمحة لا يكون له أي دخل حاسم في كل الأطوار، في تكييف التحليل المتناول به، أو فيه وإنما القراءة التي تمارس عليه هي التي ترتفع به أو تسف، بناء على طبيعة الأدوات التي تتسلح بها المستويات الفنية والتقنية التي تسخرها أثناء القراءة" (3)، يتسع مد الأفكار في صناعة محاولات جديدة وبناءات تتفوق عن أشكال سابقة "عز الدين جلاوجي من مكنته اللغة الراقية وسعة الخيال المنفلت عن العادي لاقتدار نص يشتمل الفن بمقاييسه، ويشمل الخبرة بأسنة من الحنكة السردية بين الأزمنة والشخصيات و تبغير الخطاب والتخاطب في حركة تشكيلية تعج بالثقافات العالمية مما جعل رقي المنتج الروائي، يحيل إلى ناتج القراءة وإنتاج براعة الذوق .

- جدارية "حائط المبكى":

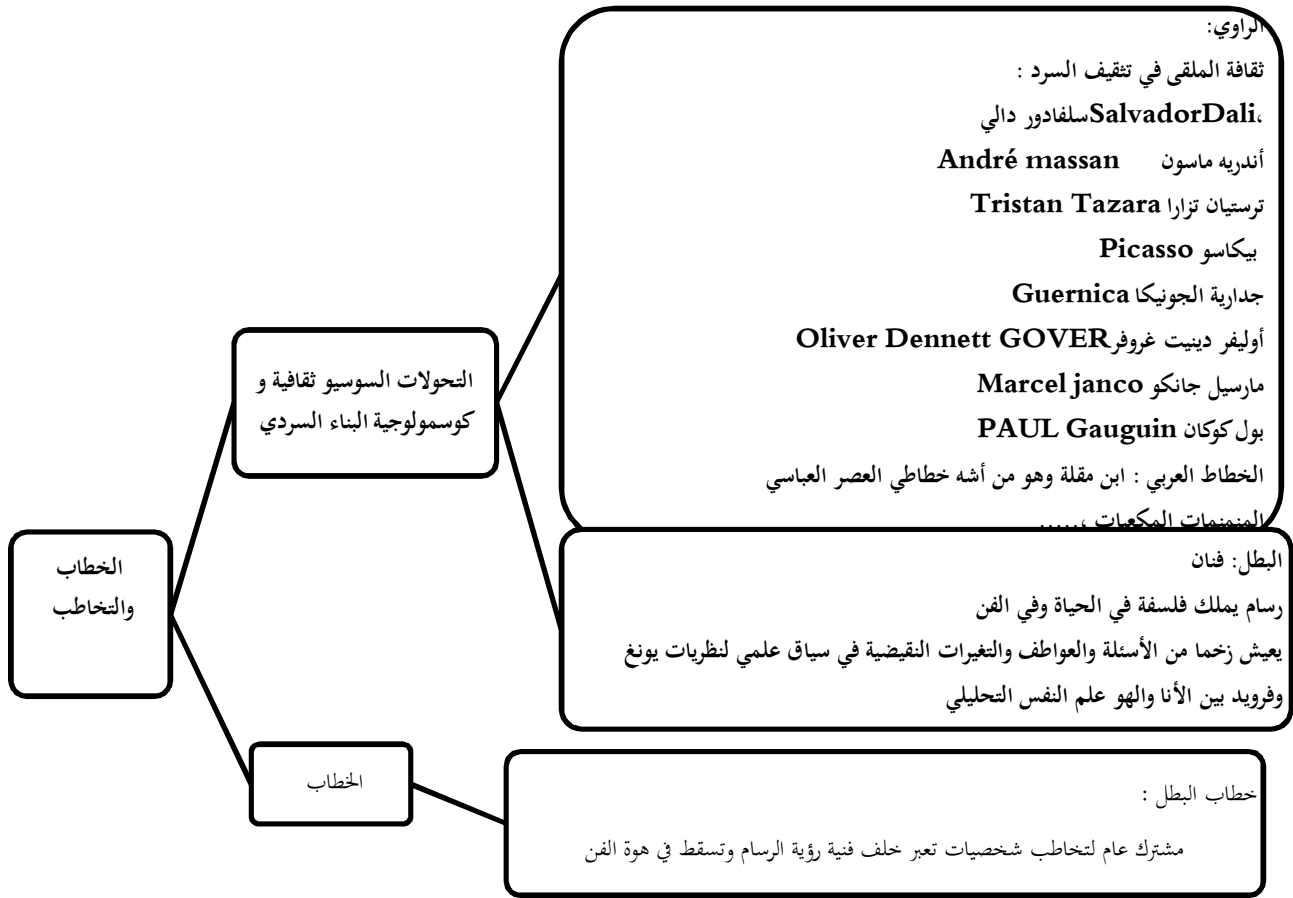
تنهض الفعالية النصية كعنوان لرواية "حائط المبكى" ليرسم عليه دائرة تجارب تعبيرية، تشرف في انفعالات نفسية تروض حيناً وأخرى تسكن في وتيرة من السكون الملفت والحديث المنفلت :



هناك استكمال بين اللفظين فالحائط مكان لتعليق ما يمتع نظر الإنسان ، ولكن ما يهم المؤلف "عز الدين جلاوجي" هي ترك مساحة كافية ليرسم بلغة استثنائية هذه المتاهة من النقائض والأوجاع النفسية للفنان وهو يعيش مع الزمن سيرورة من التهميش بين السرد الماضي والحاضر ثم الراهن فيعلق في مشجب العتبة تناقضا يُمتع به القارئ بتناقضه الحنك والملفت وهذا ما تجوب به البلاغة عند أهل العلم والمعاني " أن تبلغ الغاية إذا انتهت إليها وبلغتها غيري" (4) والتبليغ بمعنى تفسير الكلم لإنهاء كشف المعنى وانكشاف الدهشة ولذة المكاشفة، وفي كتابات المؤلف نفس المؤثرات الارتدادية في توظيف تضاد متجانس عقلائي، لكنه يورط القارئ ضمناً في حالة تراث لا تنتهي حتى ينفك حجاب المقروء ومنها روايات سابقة "رأس الحنة" سنة 2004م في طبعته الثانية، و"الفراشات والغيلان" 2006م، "سرايق الحلم والفجعة" 2006م، "العشق المقدس" 2014 لتحل هذه الرواية مؤكدة أن من يكتب في وتر من الايهام والتفاوت يتصد النُخبة من الكتاب، و لعل الفرز الإرادي للقيم الموضوعية التي أبرزت وجودها في خاتمة الرواية حين يخرق الواقع بالحلم، ويسترد خاصية البنى المتلاحقة غموضاً وإبداعاً يكتسب قابلية التأثير الدرامي، تتسع الصور الخيالية باتساع، خامات المعنى النابض الذي يرسم الأحداث ويصور المشاهد، محاولة استئناف حياة أخرى ترتقي على أبعاد الدلالة " فبقدر اتساع المعرفة، يتسع الأفق وتشف الروح، فتسهل عملية الكتابة" (5) ونمذجة عتبة إيجابية قابلة لحالات الحضور والغياب، ولا انفصال والتمركز حول مشهد العمل المكتظ على سطح الغلاف المتدفق بالتعدد والتفرد .

- كرونولوجيا الخطاب المشترك ولغة الاشتراك الضمني:

يتعايش المؤلف معاشة كرونولوجيا chronology تبدأ الرواية من شخصية مرهفة، تروي في خطاب فني هادئ في لغة تتعلل قامة من الحشرجة النوعية في ارتقاء تحولات الراوي البطل، والخطاب المشترك في تضمين ناتج من المعارف التي جعلت السرد يمتلك قيمة إبستمولوجية epistemology مما يعكس بلاغة الانتاج، وحدود تبليغ المنتج، وتثبيت ما نسيج النص في بالمقومات التحليلية العاملة على الانسجام والاتساق، والتبليغ الإرادي في وضع فطري يجعلنا نؤمن بقداسة الفن لدى الرسام البطل في الرواية، ويؤكد في نفس الوقت جهد المؤلف حين اغتنم التمثيل على محور الاستبدال والتركيب أهم ما قد يسهم في تحويلات الثابت (ثقافة الراوي) والمتغير (المعتقد الفكري لرسام- البطل-) للدلالة على قدرة الإيحاء في مقام من اللغة المطلقة بين فنية الكتابة وفن التخريج النصي :



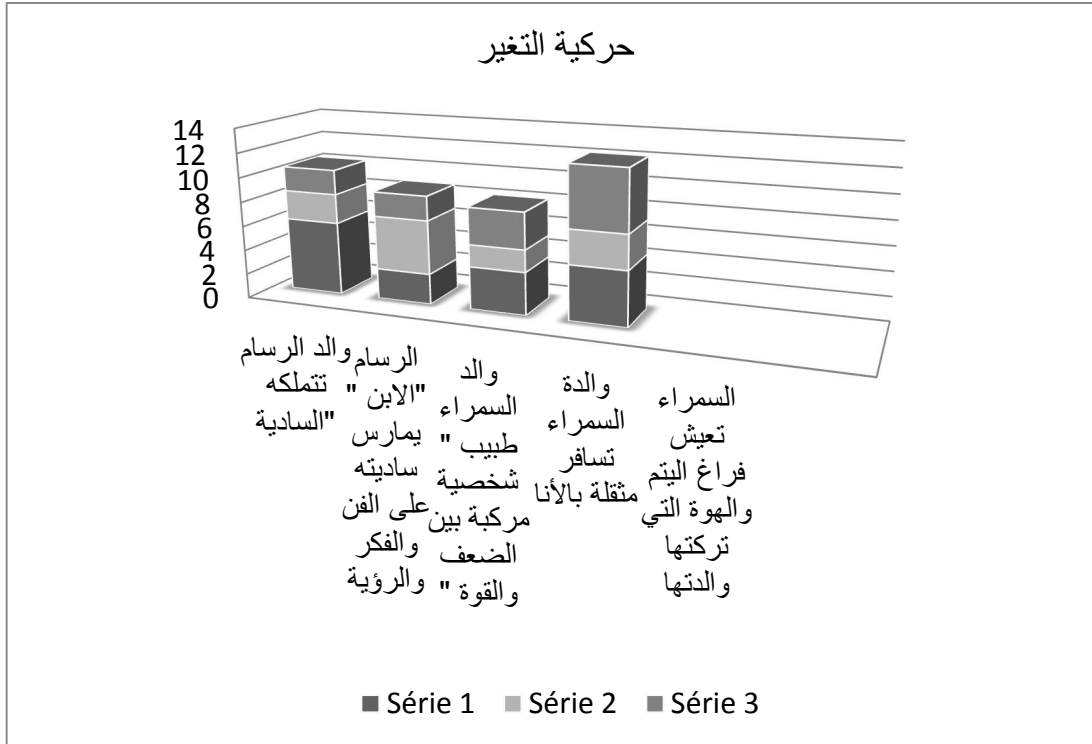
ينشطر الراوي عن المنافذ التي تؤدي لتناسخ بينه وبين البطل، ويتوارى حين يصبح الأمر انثناء على شخصية الرسام الذي تبدأ حياته في ثنايا تمكث خلف الماضي، وتعايش الحاضر مع شخصية " المراكشية " و " السمرء " يمنح كل منهما صفات تتسع بين استقامة مباشرة للأحداث ومفارقة لمقاسمة المشترك في ماضي الشخصيات :

الرسام : هو الابن المدلل سابقا لوالده العسكري " برز أمامي بعنجهيته وخطره رغم احتقاري له دوما " (6) وقد تعود والده على الاختلاء بطقوسه في اللهو في منزل بين الخمرة والنساء " صارم الملامح لا يكاد يحدث أحد " (7) يخالجه شعور الغرابة والجنون الذي يكتسي حياة والده لكن بعد موت الأب، عبر بذات الأبعاد عن نفسه وكأنه يمارس تلك الطقوس لكن في فن الرسم ورؤية الحياة بفنية اللوحات والتفاصيل .

والدة البطل (الرسام): هي امرأة ترضى بكل ما يقدم لها تتعود على تصرفات زوجها العسكري، وترضخ لحن فقدانها الابنة، كما أنها لا تتفعل بعنجهية وقسوة المعاملة وقد تعودت منظوية في ظروف حياتها وما تقاسمه لها الأقدار لأنها ما يساوي حقيقة المرأة حين يعود بنا إلى حياتها حين فرض عليها الزواج من عسكري في رتبة عالية لتأمن على حياتها المادية والمعيشية في ظروف القاهرة تنتهي بنواحيها على زوجها "كمال" في حقيقة موته الغامض .

السمراء: هي فنانة لها مبادئ في الحياة والفن تميل إلى التراث العربي لكن ما في حملتها أجواء من التعاسة المقيدة بزمن خلف بعده صورتها وهي طالبة تناقش دون حضور والدها لانشغالاته الطبية، بعدما ارتقى في مصاف "كان أبوها طبيبا عاما... ظلت تشحنه بطاقة التعالي والكبرياء ..رغم كل هذا التحول الجذري في حياة والدها والذي أنساه حتى والديه وأسرته التي تركها خلفه في أحد أحياء تلمسان" (8) وقد اختارت الأم السفر إلى الخراج والزواج تاركة مقاييس التعاسة والبؤس والإحساس باليتم يتشبث في روح "سمراء"

وهي الملامح السائدة لشخصيات تعيش زمنين من التلاقي النفسي يكمن سلم الارتقاء النفسي للشخصيات وتغيرات الواردة في الانفعالات، يحدد لنا التلقي ميكانيزمات تعالج هذا الجانب المستغل بين علم النفس السيكلولوجي الاكلينيكي والمدارس الفنية التي ييسر روحها بين الحوار المترف بمزايا القدرة، ومزية التقدير حيث يمكن للقارئ الاستلقاء الفكري دون الخروج عن النموذج الشخصية المرسومة بالأدوات المعرفية التوثيقية " فالصورة هي نتاج الوعي الذي يستجمع جميع عناصرها" (9) لاكتساء الفطرة في الحركة واتخاذ القرار وكأنه يجهز عربة تجرها خيول متمرسة في غيهب خيالي ووعي استقرائي للبلوغ نحو معادلات ترصد مايلي :



تتضاعف تجربة الأداء الكتابي حين يستكمل الفنان استمرارية الحركة في مساحة الحكيم التي تؤول بينه وبين حقائق داخلية تراودها الذات، فتورث بداخل جينات النص عبوة من اللاشعور الكتابي حيث نجد المؤلف يستنطق في جملة استبدالية بين قامة تعلق قامة البطل ذاته حين ذكر تجربته في استقدام ما يحيله من مواقف نحو الفن حيث يعرفه : " مدرسة مترعة

بالتجارب، مزهرة بالنماذج، ستلهمني عشرات اللوحات التي لن أحلم بها، ولا روح للفن، إلا تجربته بل ما المانع أن أسجل قصصا وروايات؟ وراء كل مسجون حكاية يمكن ان يرتقي بها الفن قولاً بالريشة ورسماً بالكلمات وقد امتلكت الأولى فلا مانع من أن أحوض الثانية، وقد صقلت لغتي بقراءاتي العميقة في النصوص التراثية شعراً ونثراً⁽¹⁰⁾ تتعلق الإشارة أن الغموض والسحر والالتماس الجمالي لروح النص هي أعمق وأكثر حين تلازم مزدوجاً نصياً بين تحولات الذات مع أنا البطل، وحركة الشعور ورسوخ معاني الحياتين كمعنى في جائر نحو الجمال .

- حركة المعنى والمعنى المتحرك في صورة الخطابات:

يمكن الاستثناء في تعديل اللغة لصورة دون أخرى وفي إتمام لوحات متعاقبة في مدة تستنفد الآليات في كنه الرؤية البصرية " هناك تحولات تقع بفعل المهوبة الشخصية للرواة ونوع الجمهور ومدى استعداد الجماعة لتقبل تجديرات روائية تحتمل كل رواية إذن وجود عناصر قديمة وأخرى حديثة (...). في التعبير النصي يتحقق التغير بطريقتين : إما أن تكون العناصر المتغيرة لنفس الحكاية متعادلة، أي قابلة للاستبدال فلا يصيب التحول معنى القصة إلا سطحياً (...). - أو أن العناصر المتغيرة تبين عن معاني مختلفة في هذه الحالة - نفس الحدث يتم توجيهه نحو سبل عديدة قد تكون مختلفة " (11) حيث يهندس المؤلف في "حائط المبكى" جدارية إنسانية تراجمية تمثل معاناة تقمع أفق الفنان وتسير إلى مراحل التحول حين تكتسي الحياة المادية قهرية تتجاوز النفعي لشعور الفنان وحاجاته للجمال، ومبادئه في مسامرة رغباته الفنية، وروحه كأن تكرر الماضي يحقق نزعة حكي بارزة النضوب:



تمثل الكتابة عند مؤلفها "عز الدين جلاوي" يوتوبيا Utopia كبديل لوصف نموذج يوطر صبغة تختلف، وتختلف المعتاد، فليس هدف الفنان دوماً إبراز قدرة لغوية بقدر الخروج بقدر من الاختلاف بألية جديدة تقدر حاجتنا للإتماء " فلا نبالغ عندما نصرح أن الفن هو فعل الانفصال بالذات الإنسانية عن باقي عناصر الحياة والطبيعة، لأنه فعل إعادة التشكيل، وتجريد الخلق، والقفر على نسيج الرتبة القاتلة إلى توقيع جديد، يفصل بين حركة الطبيعة، وطبيعة الطبيعة، وبين حركة الفعل الإبداعي، وطبيعته باعتباره إعادة إنشاء وإعادة خلق وصياغة جمالية للكائن أو الشيء أو الظاهرة، أو الفكرة " (12) فحضور الصورة ليس إمارة لغوية، بل تنفرد بقراءة دائرية المحيط والذات والآخر و ما تفرزه المخيلة من تنازع في المعنى حيث نجد ما يسقط على مرأى البصر، ويحقق الانتماء لها " كل شيء يحضر في اللوحة دفعة واحدة الإنسان والحيوان، الطبيعة والأشياء الحياة والموت، اللذة والألم والتعاسة والسعادة والخير والشر، كل الألوان تظهر بفطرية مدهشة بوحشانية تلقائية تعبر عن حرارة

الانفعال" (13) في جدلية العمل الابداعي، منولوجا بين الحديث الصمت، بين المغلق والمنفتح في تدافع الرموز، وتواتبها، في احلالها وضمورها" توافر المجاز الذهني، والمجاز الذي يعبر عن مجرد بالחסوس" (14) يكتشف العالم الامبريقي لنواة النص وكيفية تنوع وتفرد مهمينات عناصره، في طريقة تكفي لإصدار، وبرمجة خواصه بالحس التجريبي، بأكثر قدر للقابلية الفريدة. تتسع النظرة العلمية للنص الأدبي بوصفه بنية للخطاب الميتا لساني «metalinguistique» في وصفه رسالة لغوية، تؤدي وظائف مختلفة، وفي كليلتها مجموعة أنساق دلالية يُسرّعها الوعي الدعوب على تنظيم الاشارات المنضدة للمعنى، ومن الأجناس النصية الأكثر تجانسا بالفكر المدبر في أعلى مستويات الأداء، والنزوح إلى الرموز والالتفات إلى الغموض والتكون "الرواية المعاصرة" بمؤولاته القديمة و الحداثية حيث يفتح مجرى "التخييل فزادها معنى فوق المعنى المراد توصيله ما أدى إلى التعجب والإلذاذ" (15) تواشج النص السردي " حائط المبكى " اتساعا الحضور الأوسع، والخلق الفني يتدبر في القوانين مرئية تواجهه، ليوحي ويستوفي القدر الكافي في استنطاق بؤرة الأثر الفني مواشجة بمندسة لغوية تتفنن فيها مناهج البلاغة ورسوم التباينات الإستعارية، التي تقتضي بدورها القيمة الأثرية للحركات، لا توجهها عرضيا لبنية الصوت وامتداده، ورنين القافية واتساعها، وقد استوفى الترتيب في مراتبها، وتنظيم جلوها في المعنى، وتجليها كأنظمة دالة متمركزة في صفاتها وحدود تفاصيلها داخل المعطى .

الهوامش:

- 1 - ريس زاوي ، في فلسفة ميشال فوكو، دار الصفحات دمشق ، سوريا ، ط/1، 2014 ص.87
- 2 - كلود عبيد، جماليات الصورة ، مؤسسة مجد بيروت لبنان، ط/1، 2010 ص.93
- 3 - عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 20.
- 4 - عبد العزيز عتيق ، علم المعاني ، في البلاغة العربية دار النهضة العربية بيروت لبنان ، 1985م ص.8
- 5 - عبد الله عشي ، أسئلة الشعرية ، منشورات الاختلاف ، ط\1، 2009م ، ص 85
- 6 - عز الدين جلاوي حائط المبكى ، دار المنتهى ، ط/1، 2015 م، ص.24
- 7 - عز الدين جلاوي حائط المبكى ، ص.29
- 8 - عز الدين جلاوي ، حائط المبكى ، ص.67،68
- 9 - ناظم عودة، جماليات الصورة ، من الميثولوجيا إلى الحداثة ، التنوير ، بيروت لبنان ، ط/1، 2013م ، ص.37
- 10 - عز الدين جلاوي ، حائط المبكى ، دار المنتهى ، ط/1، 2015م ، ص.80
- 11 - عبد الحميد بورايو ، مجموعة من الأساتذة ، الكشف عن المعنى في النص السردي ، دار السبيل ، الجزائر ، ط/1، 2009م ، ص.48
- 12 - كلود عبيد ، جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ، ط/1، 2010م ص.9
- 13 - عز الدين جلاوي حائط المبكى . ص.61
- 14 - إبراهيم الخليل ، في نظرية الأدب وعلم النص بحوث وقراءات ، منشورات الاختلاف ، ط الأولى 2010 م ، ص49
- 15 - عمر اوكان ، اللغة والخطاب ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط/1، 2011م ص.195